الفصل الرابع

العالم الإسلامى

منهجه فى الإصلاح الدينى :

ليس التفريق بين ما هو من السياسة ، وما هو من الإصلاح – بالأمر الهين ، بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية ؛ فكل حركة إصلاحية تخدم هدفاً سياسيا فى حقيقة الأمر ، وكل منهج سياسى يمكن وصفه بأنه حركة إصلاح تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية ، والذين يعملون فى الميدانين إنما يعملون فى الحقيقة فى ميدان واحد هو ميدان الوطنية .

والمشكلة الكبرى التى تواجه كل سياسى وكل مصلح هى كيف تخلق أمة قوية راقية فى هذا المجتمع ؟ وهذا هو ما ندركه بعمق فى كل ما قام به مصلحونا فى مطلع هذا القرن ؛ فلم يقف أحدهم عند الإصلاح الدينى فحسب ، بل جرّه هذا الإصلاح إلى الاشتراك فى ميدان الوطنية ، وبخاصة إذا كان المصلح من أصحاب العبقرية الموهوبة المطبوعة على أداء رسالتها فى عالم العقيدة والإيمان .

وهذا هو الشيخ طنطاوى جوهرى لم يكافح ويناضل فى سبيل سمو مبادئ الإسلام وقواعده فحسب ، بل كافح وناضل عن القضية المصرية بما يشهد له بأنه كان من أخلص أنصار القضية المصرية ، وفيما خلف وراءه من الأناشيد الوطنية وكتابه « نهضة الأمة وحياتها » الذى نشره فى جريدة « اللواء » أيام مؤسس النهضة الوطنية الزعيم مصطفى كامل – ما يشهد له بصدق النظر وقوة الإيمان فيما ندعو إليه ؛ حتى أطلق عليه العلامة « سانتيلانة » الإيطالى أنه أحد رؤساء الحركة السياسية والاجتماعية التى انتشرت فى طبقات الشعب الإسلامى[1] .

---

(١) انظر «فى ذكرى طنطاوى جوهرى» للأستاذ على الجمبلاطى ص ٣٧/٤٨ .

ولعل فيما قدمنا من سيرته ما نلمس فيه وطنيته بجانب أنه كان داعية الإسلام فى الشرق الناهض ، ولعلنا حين نستعرض ما اقترحه للإصلاح العام نلمس جمعه بين الوصفين وقيامه بالنهضتين ؛ فهو يرى أن الإصلاح ينهض على أربع دعائم ، ويوجه قادة الشعب إليها فيقول :

١ – أن يسرع قادة الشعب فى تعميم مزج علوم الحياة بالدين حتى يطمئن المتدين إلى النظر فى هذا العالم ، ويعشق العلوم عشقاً قلبيا .

٢ – أن تعمم آداب الدين الإسلامى التى حصرها الإمام الغزالى فى سبعمائة وخمسين آية بين مشايخ الصوفية حتى يقتربوا من إخوانهم طالبى علم الدين ، ويقودوا الشعب إلى المدنية والعلم .

٣ – أن يشجع قادة الأمة الصناعة والصناع بترويج ما صنعوا وإطرائه والإقبال عليه .

٤ – العناية بشعراء الربابة الذين يقصون أقاصيص خيالية تأخذ بألباب العامة على أن تهذب تلك الروايات ، وتتحول إلى ما نحتاج إليه من الأخلاق الفاضلة وحب العلم ورقى الأمة فسلطان هؤلاء على العامة كسلطان رجال الدين ورجال الصوفية على الباقين .

وهذا المنهاج يدلنا على ما سلكه الشيخ طنطاوى وأمثاله من المصلحين فى هذه الفترة من أمثال الأستاذ الإمام محمد عبده والكواكبى وعبد العزيز جاويش وغيرهم من دعاة الإصلاح الدينى . ويقول البارون « كاراه دى فو » فى كتابه « مفكرو الإسلام » فى الفصل الذى يبين فيه المظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديثة : « منها العناية الشديدة التى أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده والشيخ طنطاوى جوهرى فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث »

وأيد ذلك العلامة « تشارلس آدمز » فى كتابه « الإسلام والتجديد فى مصر » حين ترجم للشيخ طنطاوى ككاتب له مؤلفات كثيرة فى نصرة الدين والدفاع عنه وأنه أحد الرواد الذين عملوا على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى وبين الحياة الاجتماعية والدينية فى مصر ، وجعلوا لكيان ذلك كله طابعاً إسلاميا صحيحا .

ولعلنا نجد المشابهة واضحة بين رأيى الشيخ طنطاوى والشيخ محمد عبده إذا رجعنا إلى أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه عن « محمد عبده » ثم نرى ما قرره الشيخ طنطاوى لهذا الإصلاح ؛ فإنه يرى أنه يجب أن يدرس الأزهر مبادئ تخطيط البلدان وسير مشاهير الرجال مما يدعو إلى علو الهمم ، ثم دراسة السيرة النبوية بعد استخلاصها وإظهار ما يستوجب إعظام نبينا ومعرفة شجاعته وسياسته ، وجمع الأحاديث الصحيحة التى لها مساس بالاجتماع والحياة والرقى واستبدال بعض كتب المتأخرين بكتب الأقدمين ، ودراسة مبادئ التاريخ الطبيعى وشرح الآيات به ، وكذلك

مبادئ علم الهيئة بعد أن ينقّى مما اختلط بعلم التوحيد مما ينافى الدين ، وكذلك مبادئ قانون الصحة ، ثم أراد تشكيل لجنة من ذوى الرأى للنظر فى المعاملات والأحكام واستخلاص قانون مسنون من المذاهب الأربعة يلائم هذا العصر يستبدل بالقانون الأوربى ، ثم طالب له بالمال من الحكومة والأوقاف وأغنياء الأمة .

ثم هو يقوم بدور المدافع عن الدين الإسلامى حين رد على ما يدور فى أنحاء أوربا والشرق من أن المسلمين متعصبون ودينهم ينفر من المدنية والحضارة وعلوم العمران ، وأنهم ظالمون للنساء متباعدون عن الأعمال ، يأمرهم دينهم بالكسل ، وينهاهم عن العمل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه يجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب الذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح وهذا كله ترديد لما قاله «كرومر» من أن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعى !

وقد ردّ الشيخ طنطاوى على كل ذلك فى كتابه « نهضة الأمة وحياتها » ردًّا مفحماً مؤيداً بالآيات القرآنية والتاريخ الحديث والقديم ، وقرر أن نهاية أبحاث علماء العمران فى هذا العصر بداية علوم الإسلام لا المسلمين فى القرون الحالية .

وتحدث الإمام محمد عبده عن الرشوة ، وكذلك فعل الشيخ طنطاوى حين ندد بالمرتشين بشتى الصور ، وتحدث عن الرشوة فى الشرق وفى الغرب ، وتناول الحديث عن الزكاة والحكمة منها ، وأن الرشوة قلبت الأمر فأدلى الفقراء بأموالهم إلى الأغنياء والحكام !

وتحدث الأستاذ الإمام عن البدع والضلالات ، ونرى الشيخ طنطاوى يتناول فى كلامه عن العقول والأوهام بعدم تصديق ما ينشره الدجالون والمشعوذون من أفكار خاطئة عن التنجيم والعفاريت والإخبار بالغيب .

ولما كانت « الفتوى الترنسفالية » مثار ما كتبه الشيخ الإمام فى لبس القبعة وأكل طعام أهل الكتاب وأداء الصلاة وراء كل إمام يدين بالإسلام . كانت « الرسالة القازانية » مثار إجابة الشيخ عن سؤال أحد شبان القازان الذى يقول : « هل علماء الإسلام المتقدمون بلغوا النهاية من مباحث الإسلام فلا تثريب علينا إذا نحن سكتنا وتوقفنا عن التفكير بعدهم ، أو أن الأولين تركوا للآخرين مجالاً للبحث والتنقيب والتفكير فى أمر الدين ؟ » فسكت الشيخ طنطاوى مليا ثم قال : « أنا لا أنشر شيئا لقوم جبلوا على التقليد وأخاف - إن قلت الحقيقة - أن عامتهم تثور ، فتحبط العمل » . فردَّ عليه الشاب وقال : « ولمن تعطى العلم إذن يا سيدى ؟ ، فحمله ذلك على أن يؤلف الرسالة القازانية فى ثلاثة أيام ، وهى عبارة عن ثلاث مقالات من خير ما كتب عن العلوم التى نسبها الغربيون إلى أنفسهم ، وهى داخلة ضمن فصول كتابه « نهضة الأمة وحياتها » فليرجع إليها من يشاء .

وقد دعا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تعليم اللغات الأوربيـة ، وكذلك دعا الشيخ طنطاوى إلى تعلم اللغات الأجنبية مؤيداً دعوته بالبراهين .

وهنا تقتضينا الأمانة الأدبية أن ننقل عن لسان نجل الشيخ طنطاوى جوهرى السيد المهندس جمال الدين ما قاله لنا بشأن هذه المقارنات بين الشيخ طنطاوى والشيخ محمد عبده : إن الشيخ « محمد عبده » يرى تطويع الدين للدنيا وكان يعمل على أساس أنه مصرى ، أما الشيخ طنطاوى فكان يرى أن الدين هو السياسة والوطنية والعلم ، وكان لا يرى إلا أنه صاحب رسالة عليه أن يؤديها مهما كانت النتائج حتى لو عادت عليه بالضرر ! وكان يعمل على أساس أنه مسلم فهو يعمل للمسلمين جميعا ، وكان يرى أن السلام : فلسفة ، علم ، دين ، وسياسة .

من كل ما قدمنا نريد أن نثبت أن الشيخ « طنطاوى » كان من مدرسة الإمام ، ومن العاملين المفكرين المؤمنين بفريضة الإصلاح ورسالة التقدم ، وكان مثله يكافح الجمود من جهة ويكافح التفرنج الذميم من الجهة الأخرى . وقد سلك سبيل خدينه فى الدعوة الإسلامية ، فحارب أولاً ما استولى على المسلمين من ضعف وفتور العزائم والانصراف عن الدنيا ، وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد بمقالاته وكتبه وخطبه ثم خروجه على الناس بحملة تقدمية كبيرة فى تفسيره العلمى ، ثم برده على ما يتهم به الإسلام من أنه دين متخلف ، ثم بمشروعه الذى تقدم به لإصلاح الأزهر ووصله بالحياة المعاصرة ، ثم بتلك الفتاوى التى كان يرد بها على كل من سأله فى مشكلات الدين سواء فى الدروس أو فى الصحف ، وكذلك آراؤه التى كان يذيعها عن طريق ندواته التى كان يعقدها فى منزله أو فى منازل مريديه أو الجمعيات التى يعمل بها ، ثم اتصاله بالشرق عن طريق كتبه الدينية التى ترجمت إلى كل اللغات الشرقية ، ثم كتاباته لكل علماء العالم وعظمائه فى الشرق والغرب . واتصاله بكل وافد شرقى وبالشبيبة من أبناء الشرقين الأوسط والأقصى فى جماعة الأخوة الإسلامية كما قدمنا كل هذه الوسائل التى سلكها المفكر الإسلامى العبقرى وغيرها جعلته على رأس القائمة حين يُذكر « دعاة الإسلام » ، فهو مسلم ارتفع إسلامه الحنيف عن القعود والتواكل ، وعن خزن ما فى صدره ؛ فعمل حتى لم يبق بلد شرقى يجهل مؤلفاته :

فى اليابان يتردد اسم طنطاوى جوهرى ويتدارس فقهاؤهم كتبه ، وكانوا يبعثون إليه فى طلب زيادة الرىّ منها .

وفى الصين يأتم جميع المسلمين فيها بكتبه ، وفى الهند يضع المسلمون من أهلها مؤلفات الشيخ طنطاوى موضع السند يعودون إليها كلما اختلفوا ويرتوون منها ما احتاجوا فيه إلى الرأى الثاقب .

وفى أفغانستان وإيران والعراق ومصر والشام والحجاز واليمن وما وراء هذه البلاد وما بعدها من

الأمم المسلمة فى المشرق والمغرب يعرف الناس ما كان للشيخ طنطاوى من فضل مشكور وجهاد مبرور [١] .

الشيخ طنطاوى فى صحف الهند :

نشرت جريدة « اللواء » فى عددها الـ (٣٢٦٠) الصادر فى يوم الخميس ٢٨ من أبريل سنة ١٩١٠ تحت العنوان السابق ما يلى :

« لما كان مسلمو الهند الذين يبلغون ستين مليونا من النفوس قد أخذوا ينهضون من سباتهم العميق وابتدءوا فى حركة الرقى والإصلاح ، وأخذوا يجدون فى العلوم الدينية والعصرية وكانت لغتهم هى « الأوردية » تطلعو إلى قبلة يؤمونها ووجهة يولونها فلم يجدوا بلداً عربيا غاصًّا بالعلماء مثل القطر المصرى ، فولوا وجوههم شطره . وبينما هم يرتقبون عالماً مصريا يشبه الإمام السيد « أحمد خان » يتلقون عنه العلم - إذ ظهر الشيخ الإمام محمد عبده ، فتلقفوا كتبه بشوق عظيم ، وودوا لو يطول عمره ، وتكثر تصانيفه . فلما غادر الدنيا ولقى ربه مع قلة تصانيفه صادفتهم كتب الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ، فألفوها تضارع كتب الشيخين وتنهج نهج الإمامين ، فاستبشروا ، وتلقوها بالسرور وتلقفوها بالفرح ، وأخذوا يترجمون وينشرون ما ظهر من كتبه ، وكأن الله عز وجل عوّضهم مما فقدوه من كتب الإمام الشيخ محمد عبده بوفرة كتب الشيخ طنطاوى جوهرى . وكلما نشروا كتابا منها أخذوا يسألون عن غيره حتى وصل لهم كتاب « نهضة الأمة وحياتها » ، فأخذت ترجمها جريدة « وكيل » التى تصدر فى « أمرت » من بلاد « البنجاب » بالهند ، وقرظته جريدة « بيه أخبار » اليومية التى تصدر فى مدينة « لاهور » بعددها الصادر فى ١٥ من مارس الماضى عام ١٩١٠ تحت عنوان « المقالة الخاصة » .

قالت ما ترجمته : وصلنا كتاب « نهضة الأمة وحياتها » الذى صنفه الفاضل المصرى الشيخ طنطاوى جوهرى الشهير فأنعمنا فيه النظر ، فألفيناه قد ابتدأ الكتاب بالمبادئ والمقدمات اللازمة لرقى الأمم من الروحانيات ، ثم أتبعه وجوب وجود رجال عظماء للأمم النائمة الساهية ليوقظوها من سباتها وينشروها بعد موتها . وأخذ يشرح عناصر الإصلاح المكونة للأمم من الحرية والمساواة وتعليم العلوم والصناعات ، وطفق ينقد علماء العصر الحاضر الذين يمنعون المتعلمين من التغذى بلبان العلوم الحديثة باسم الدين !

ثم عقد فصلاً خاصا بين متعلم أزهرى وعالم عصرى ، وأخذ يشرح المقدمات ويستنتج النتائج

---

(١) عن «فى ذكرى طنطاوى جوهرى» ص ٤٨/٥٠ .

بعبارة حسنة جميلة رائعة تأخذ بالألباب ، وانتهت باتحاد المتناظرين على أن العلوم العصرية لا تفسد عقائد الدين ولن تفسدها إلاّ الآثار الناقصة المشوهة من فلسفة اليونان المتخللة كتب الدين .

واتفق المتناظران على وجوب قراءة العلوم الحديثة جميعا فى الجامع الأزهر .

وبعد أن فرغ من الإصلاح الأزهرى ألقى نظرة إلى الأمم الحاضرة ومدنيتها ، فبسط الكلام فى عناصر المدنية وقوانينها وأحوالها العامة وقارن مصر بتلك العناصر ، وأسف أشد الأسف على بلاده وتمنى رقيها السريع فهو مغرم برقى بلاده كما هو مغرم برقى الأزهر . وشرح الثانية كما شرح الأولى ، ووصف داءها ودواءها وصفا شافيا مما دل على إخلاصه وحبه لبلاده حبًّا جمًّا .

ثم أخذ يحلل بعد ذلك بطريق عجيب وأسلوب غريب مدهش كثيراً من الأخلاق والآداب والآراء بعبارات غاية فى الحسن والإتقان حتى إننا لم نملك أنفسنا عند قراءتها أن نقول « واه . واه » ثم قابل بين المشرق والمغرب بطريق عجيب غريب ، وأثبت بالأدلة الفلسفية والبراهين العقلية أن لا حياة للأمم إلاّ بالأحكام الدستورية ، وأن ذلك ناموس طبيعى يشابه تمام المشابهة لنظام الجسم الإنسانى . وعزّز رأيه بالقرآن والتوراة ، ثم أردفه المؤلف بمقالات كثيرة أظهر فيها قوة وغزارة علمه وتوفر مادته مما لم يجاره فيها أحد من الكتاب قبله ، ثم أتبعه الكلام فى مسألة الرق فى الإسلام بنهج عظيم رقيق ، فبين كيف ابتدأ الرق فى الإسلام ؟ وما فائدته ؟ وعلى أى مقصد أسس بنيانه ؟ وما فوائده العظيمة للأمم السالفة ؟ وأن الرق فى الإسلام عبارة عن مدرسة جامعة يحشر فيها أبناء الجاهلية فيتعلمون ويصيرون علماء وملوكا (ككافور الإخشيدى وابن طولون والمماليك) فهو معهد علمى تربى فيه ألوف من أبناء الفقراء والمساكين من الأمم الوحشية ، وأبان أنه لا سبيل لإصلاحهم بغير هذه الوسيلة .

والخلاصة أن هذا الكتاب فى محاسنه وبدائعه ليس له نظير . ولقد كنا ونحن نقرؤه ونزن قوة المؤلف وغزارة مادته نتذكر الإمام الغزالى فى فصاحته وبيانه وقوة إقناعه فى مصنفاته فتبارك الله رب العالمين » اهـ .

وإنا نرجو من الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى أن يجعل حياته وقفا على تصانيفه ؛ فإن « ملايين » من الأمم الإسلامية تتشوق لهذه الكتب فلا يحرمها مؤلفاته كل حين . ولا يسعنا إلاّ أن نحث علماء مصر على اختيار هذا الطريق لخدمة الأمم الإسلامية وإحياء الإسلام والعلوم .

عبد الحق الشاه نورى الهندى

وقد نشرت هذه المقالة جريدة « العلم » كما نشرته جرائد ومجلات هندية أخرى .

ويُعدّ هذا المقال نموذجاً لما نشر من هذا القبيل مما يدل على ما كان للشيخ طنطاوى من مركز كبير لدى الصحافة الشرقية والعالم الإسلامى .

مع السيدة جلنار :

هى مدام ليديف المستشرقة الروسية ، وتتقن أربع عشرة لغة منها العربية والإنجليزية والفرنسية والنمساوية والتركية والفارسية والروسية التى هى لغتها الأصلية . .

جاءت هذه السيدة إلى مصر عام ١٩٠٦ ، وطلبت من نظارة المعارف أستاذاً عالماً بالتصوف ، فأرسل فخرى باشا ويعقوب باشا أرتين إلى الشيخ طنطاوى وطلبا منه أن يذهب إليها . . يقول الشيخ طنطاوى :

« توجهت إليها فوجدتها جالسة مع الوقار والأدب والكمال ، وأخذت تحدثنى باللغة العربية عن عالم الروح وما وراء الطبيعة وأقوال الأمم من شرقيين وغربيين فى ذلك ، وكانت تبتدئ بالقول على نهج الأوربيين تارة وحكماء الهند أخرى ، وفلاسفة اليونان تارة والعرب أخرى » . . وما ولجت باباً إلاّ قال لها الأستاذ : لقد طالعت هذا فى كتاب كذا من الكتب العربية كالأسفار للشيرازى ، والمواقف والإشارات لابن سينا ، والفارابى وابن عربى وغيرهما . ثم يأخذ فى الشرح ويفيض فيه حتى يلم بأقسام الموضوع الذى ابتدأته . . فدهشت السيدة وعجبت ، وكأن كلاً منهما لم يكن ليعلم أنه يلاقى من يشاكله فى هذا المجال . واستمرت هذه الجلسة ساعتين ونصف الساعة شرح لها فيها الكثير من الرسالة القشيرية .

قالت مدام ليديف للشيخ طنطاوى : إن لها أستاذاً بألمانيا يسمى ماركس ، وهو الذى أمرها بترجمة « الرسالة القشيرية » إلى اللغة الفرنسية لتعم أرجاء البلاد الأوربية ولتكون ذكرى لها بعد موتها .

وفى أثناء ذلك جاءها خطاب من أستاذها الألمانى يسألها فيه عن الذى يساعدها فى الدراسة فقالت له : إنه « الأستاذ طنطاوى جوهرى » . فأرسل لها يقول : « سليه عن معنى العفّة وما معنى التوحيد ! » وظن الأستاذ أن ذلك لمجرد الاستفهام ، ولم يكن ليدور بخلده أنه امتحان وأن ذلك سوء ظن من الألمانى بالمصرى ، فقال لها : « العفّة هى التوسط فى المطاعم والمشارب والملابس والمساكن وكل ما حام حول حمى الشهوات البدنية واللذات الحسية : فإن مال إلى الزيادة سمى طمعاً وشرها ، أو إسرافا وتبذيراً ، وإن مال إلى النقص سمى بخلا وتقتيراً ، ونحو ذلك من الأسماء والصفات التى شرحها علماء هذا الفن . .

« أما التوحيد فهو أن الله عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو الحى القيوم الأزلى الأبدى الذى تجلى على الأكوان فأبرزها ، وعلى الحقائق الكونية فأظهرها . ألا وإن الخلق جميعا

سابحون فى بحار نعمته ، غارقون فى أنوار جلاله وجماله ، وما مثلهم مع الحق جل جلاله إلا كمثل النجوم مع الشمس ؛ فلئن ثبت وجودهن إن الشمس أحاطت بهن ، وهكذا . . »

فلما ردّت على أستاذها الألمانى بما سمعت من الشيخ طنطاوى جاءها الرد يقول :

« إن هذا الأستاذ عالم بالفلسفة اليونانية والتصوف ، ولكنه لو قرأ اللغة اليونانية لكان ذلك أحسن ، ولى عليه اعتراض : هو أن هذا التوحيد الذى ذكر يدل على أن الدين الإسلامى لم يُحَلّ وثاقه ولم يطلق عنانه ولم يتح له أن يجعل التوحيد أوسع مما قال ، ولِمَ لم يكن كالحلاج الذى فنى فى ذات الحق ، وأفنى الوجود كله فيه ؟ ولكن الذى منعه هو دينه دين الإسلام . إنه رجل مستنير فليدرس معك هذا العلم ، فإن الشيوخ الذين قابلناهم فى أوربا لم نر منهم من يعرف هذه العلوم » .

ولما قرأت هذا الجواب على الشيخ طنطاوى عرف أن الخطاب كان امتحانا ، وحضر إذ ذاك يعقوب باشا أرتين واطلع على الخطاب ، فاستغرق ضاحكا وقال : إن الشيخ « طنطاوى » يقول مانعقله مما لاتفهمانه أنت وصاحبك الألمانى عن وحدة الوجود !

ولما أرسلت لأستاذها أول جزء من الترجمة كتب إليها يقول مامعناه : « لم أر ترجمة فى اللغة الفرنسية الفقيرة أبدع ولا أروع مما جاء باللغة العربية الغنية التى أبرزت مافيها من المعانى وبيّنت » .

ولقد كانت هذه السيدة تعجب مما تسمع من آراء مشهورى الصوفية -كالجنيد وابن المبارك وأمثالها - ووجدهم لربهم ، وعشقهم للحضرة الإلهية .

حادثة الجنيد :

وذكر الأستاذ الشيخ طنطاوى أنهما كانا يقرآن فى حديث عن الجنيد إذ قال له تلميذه : « . . وقوله ينشد شعراً والتلاميذ طربون فرحون صارخون مُوَلهون بما طربوا وما استفزهم من المعانى البديعة والمغانى البهية » وتوقف التلميذ عن القراءة ثم سأل : « أليس لك فى السماع ياسيدى ؟ » فقال له الجنيد : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب » ا . هـ .

فسألته السيدة : مامعنى هذه الآية ؟

فأجابها : « إن المتقدمين كانوا يفسّرونها بأن الجبال يوم القيامة ستكون هباء منبثا كالعهن المنفوش والصوف المندوف ، فيرى الإنسان الجبال كأنها لعظم جرمها ثابتة ، مع أنها سريعة الحركة ، فأما المتأخرون من المسلمين فإنهم لما قرءوا الهيئة الجديدة ورأوا أن الأرض دائرة والجبال معها قالوا : وترى الجبال تحسبها جامدة ساكنة وهى تمر مع الأرض الجارية بحُسبانٍ حول الشمس ، والسحاب يدور حول الأرض ، وهكذا القمر ، ولذلك أعقبه بقوله صنع الله الذى أتقن كل شىء ، والإتقان ينافى

التخريب ، فلو أن ذلك كان يوم القيامة لم يسغ فى نظم البلاغة أن يقال : صنع الله الذى أتقن كل شىء ؛ ولكن يقال : إن بطش ربك لشديد ؛ لتكون الصفات مناسبة للمقام .

فقالت السيدة : إذن لقد كذب والله الأوربيون إذ يقولون : ليس فى الإسلام لطائف وبدائع ورموز ! وظهرت عليها الدهشة ثم قالت : فهمت معنى الآية . وماقصد الجنيد إذن ؟

قال الشيخ : إن الجنيد يقول ، مامثلى إلاّكمثل الجبل يرى ساكناً وهو فى الحقيقة متحرك ، جار أسرع من الهواء والطير والسحاب : فقلبه جائل فى المعانى ؛ وجسمه ثابت كالجبال الرواسى : فالطرب والحركة للقلب ، والسكون للجسم .

* * *

وسألته السيدة جلنار يوماً مامعنى البيت الذى يقول :

وأسكَرَ القومَ دور كأسى وكان سكرى من المدير

فقال : إن هذه على عادة أهل الحانات ، يجلسون وأمامهم ساقٍ يسقيهم فيقول : إن كأس الخمر أسكرت القوم ، أما أنا فما أسكرنى إلاّساقيها والخمر هنا هى المعارف والعلوم واللطائف والفتوح الربانية ، والمعانى البديعة المنزلة على قلوب العباد المخلصين لربهم ، أما الساقى فهو مُنزل تلك العلوم على الأفئدة والمتجلى بنوره على القلوب ، والمشرق شمسه على بصائرهم . فيقول : إن الناس يسكرون للمعانى العلمية واللطائف الربانية ، أما أنا فاستغراق فى جمال جلاله ، وعشق لذات جلاله . فلامعشوق إلاّ الله ، ولامحبوب لى سواه .

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذى براه فأولاه الجمال وتمما .

فماذا يراه عاقل غَيْرَ أنه قصور جنان الخلد رصعن أنجما

فنظرت إليه وقالت بتحسر وتأسف : « ليتنى كنت شيخا » .

وكانت تأنس إليه وتستشيره فى كثير من الأمور ، بل كانت تصلى معه الصلاة السرية كالعصر والظهر ، وكانت تفخر به كأستاذ لها ليس له نظير .